(٢٢)

عيد
قديم في جديد
صار به الهيكل نصبا للبيت العتيد
وأضحى به القلب وليدا للقدس الفريد
نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده
الله أكبر الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله

حديث عيد الأضحى
١٠ ذو الحجة ١٣٨٢ هـ - ٤ مايو ١٩٦٣ م

أشهد أن لا إله إلا الله، نصر عبده، نصر عبده دائما وأبدا، ما صدق في تعبيد نفسه لربه في مجال قيامه ومجال خدمته، على ما أراد عبده، مظهر إرادته وقيام مشيئته، له عنده ما يشاء يوم فنى عن نفسه فكان نفس ربه، ولو سأله لأعطاه، ولو استنصره لنصره. أغناه بالافتقار إليه، وكلما نما افتقاره إليه نما به غناه، عبد لا يعرف غير مولاه، ولا يشاهد فيما يشاهد غير مَرآه، يرفع في ذاته وبذاته عَلَمَ لا إله إلا الله، وتقوم رسالته عن عظمة ربه وعن عظمة قرب الله، بقائم هدي الله، من الأكبر لله رسولا، إلى قائم الله عبدا في وجود الله بآيات الله، يوم يغلِّب صفات الخير فيه على صفات الشر له فينصر حقه على خلقه، وخيره على شره، ووعيه على غرائزه.

ها نحن نردد في مثل هذا اليوم من كل عام شعارات الرسول، يوم قام في الناس عبدا لله، وذكرا لله، وحقا من الله، وبيت جماع جند الله، أغطش الله ليله وأخرج ضحاه، فرفع شعاره وشعار رسالته بأمته وبيته "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله"، حتى يقدر الناس معبودهم وإلههم، وحتى يعرف الناس رحمته بالربوبية عليهم من أنفسهم برفيق وأعلى، وحتى يسلك الناس ويحقق الناس

حقي العبودية لمعانيهم، في ربهم من ربهم، وفي إلههم من إلههم بكشف غطاء المادة عن أرواحهم، فيشهدوهم عين مَن ربَّهم وعين من رعاهم في الله إلها لهم، وعين من تقدس عندهم والأقدس، وقد عبَّدهم في معناهم لمعاني العبد ولمعناه من ربه، وجه الحق له عندهم وجوها له، فيعرفون أن العبد حق، وأن الرب حق، وأن الإله حق، وأن هذه الحقائق من الله يجمعها الإنسان في قيامه بالحق، بفرده وبمجتمعه من جمعه في قيامه حول بيوت ذكره موضوعة، وفي قيامه في ذاته ببيت ربه بقلبه، بيوتا ترفع، وكلمات لله إليه تصعد يرفعها العمل الصالح.

الإنسان بهيكله، الإنسان بنفسه، عالم صغير في ذاته لعالم كبير في انتظاره، فيه ذكر الله، فيه عرفات الله، فيه بيت الله، فيه قبلة الله، فيه أرض الله، فيه شمس الله، فيه عَالَم الله. فيه وجود الله، يحمل اسم الله، ويُذكر فيه اسم الله، ويقوم بسم الله، ويتميز برحمة الله، يشهد الله أكبر، والله أكبر، والله أكبر، ويَعلَم ويَعلِمُ ويُعَلِّم الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله.

ها نحن نردد هذا الشعار في مثل هذا اليوم من كل عام، ونصلي على محمد، وعلى آل محمد، وعلى أصحاب محمد، وعلى أنصار محمد، وعلى أزواج محمد، وأخيرا وآخرا وعلى ذرية محمد، ما عرفنا محمدا ولا آل محمد، وما صحبنا بيننا أصحاب محمد، وما اجتمعنا في قائم أنصار محمد، وما عاملنا محمدا في ذرية محمد لا تبتر ولا تجز ولا تنقطع، ولا نسبنا أنفسنا إلى أزواج محمد بروح قدسه من عذراوات الطبيعة، ولكننا نردد شعارات محمد، ومحمد بيننا هباء، ليس له ولاء، وليس لنا فيه رجاء، وليس لنا به في الله ارتقاء أو رضاء. نردد لا إله إلا الله ولا إله لنا، ونردد محمدا رسول الله ولا رسول بيننا.

نذكر سلفنا صالحا، ونقوم قياما طالحا، لا نرجو فيه بيننا صالحا نرضاه، ولا نعترف بيننا بصالح نلقاه، بل نذكرنا كلنا بالكالح، ثم لا نطلب مع ذلك صلاحا، ولا تواصيا بحق، ولا مجاهدة على حق. ويوم نذكر الصلاح والصالح نتابع كل كالح باسم الصلاح وبوصف الصالح في مثل من حاضرنا ومن قديمنا.

هذا ما آل إليه أمر محمد في قومٍ زعموهم قومَه، وفي أمة زعمتها أمته، وما آلت إليه رسالته، توثّنت معانيها، أوثانا من أفعال وأوثانا من أقوال وأوثانا من مناسك. يذبحون في مثل هذا اليوم من كل عام ما يسمونه الفداء، أي فداء!! وعن من الفداء!! ومن هو كبش الفداء!! ولماذا شرع هذا المنسك؟ في رسالة محمد يقولون إنه شرع ليُذكِّر بمنسك نشأ في عصر إبراهيم، كما يذكّر بأمر تجدد في عصر عبد المطلب فكان تجديدا للمنسك القديم في ذاته، وإشارة لشرف ابن الذبيحين دون إدراك لما في هذه الإشارة أو هذا الشرف، وهو في الحقيقة أمر يشير إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير. إنه يشير إلى ما يجب أن يبنى عليه أمر الدين، ويتكشف به أمر اليقين، يوم يطلب الإنسان لنفسه معنى اليقين، {فاقتلوا أنفسكم.. فتاب عليكم}[١]، (موتوا قبل أن تموتوا)[٢]، (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا)[٣]، {وإن الدار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون}[٤]، {ناقة الله وسقياها}[٥]. إن الحياة في الموت، {الله يتوفى الأنفس حين موتها، والتي لم تمت في منامها}[٦]، {فصلِ لربك وانحر}[٧]، هو {الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين}[٨].. {أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها}[٩].

إن منسك الفداء في الإسلام يشير إلى أن حيوان الإنسان في ذاته، يجب أن يكون فداء الإنسان بمعناه في حياته. لابد من قتل حيوان ذاتك التي تسجن في مادي قيامك روح معناك لإنسانك، {فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة}[١٠]، وهذا لا يكون لك إلا يوم تصاحب وتتابع عليه من تم له ذلك.

إن إنسان معناك في ذات قيامك، من يوم وجودك في ساعة حياتك على أرض شهودك، في يوم ذي مسغبة، {والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع}[١١]، إنما هو من يعنيك تحريره من سجنه، أما الدنيا فالدنيا قذرة، قذر ما فيها، عدا ذكر الله وما والاه، (الدنيا جيفة والناس كلابها)[١٢]، والقلب بإنسانه لا طعام له إلا ذكر الله، (أُذكر الله حتى يقولوا مجنون)[١٣]، (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وإن جلاؤها لذكر الله)[١٤] ... (ازرع كلمة الله في أرض ناسوتك)[١٥]، {وفي أنفسكم أفلا تبصرون}[١٦]، أقرب إليكم من حبل الوريد ومعكم أينما كنتم. إن الله قائم على كل نفس، تكسبه أو تخسره، تكسب به أو تخسر به، فهو على قيامها قائم، ومن ورائها محيط، سواء كان وجها أغبرا بفعلها، أو كان نضرا بفعلها، فهي اسم وذكر لشيطانه أو لرحمانه، سوف تفنى عنها يوما إلى إبلاس ينتظرها، فيه تنظر، أو إلى وجه للرحمن، به تُرحَم وتَرحَم.

هذا كله يقوم في منسك الفداء، يوم نعرف لم شُرِع لنا منسك الفداء، لنتعلم منه الفداء، فنستشهد في سبيل الله، ناحرين مادي وجودنا، وحيواني معانينا، بهيمة الأنعام وصفنا، والبهم قيامنا، بمسح أوانينا عنا إلى بيت رحمته وروح معناه ونور طلعته بعبده الكوثر والنور الذي أنزل معه قَيما لا عوج له، مُبينا على مكث فينا رسول البصيرة في أهل البصيرة بدوام أهلها.

وهذا ما خَفى علينا واحتجب عنا، وعن قيامنا لنحقق لقيام معانينا بمعاني الإنسان لنا بإنسان الله بيننا. وما الإنسان لنا إلا اسم الله، وذكر الله، وقيام الله، وجوها له، يوم نرفع عنا غشاء الحيوانية لنا لنقوم بمعنى الإنسانية في قيامنا.

هل أفدنا من هذا المنسك نؤديه وندعو له ونقوم فيه هذه السنون وهذه القرون؟ أم نحن مع ذلك على حال من الجحود مع الله أقرب إلينا من حبل الوريد، ووهم من تجسيدٍ لمعناه، بعيدا عن بيوت ذكره من قلوبنا لقوالبنا في صدورنا، بتجميد مناسكنا وتجسيد معانينا؟

ها نحن هذا العام يتعطل عندنا منسك الحج، فهلا استيقظنا إلى حكمة تعطيله وما تحمل من إشارة، وما تعطي لنا من عبارة، وإلى ما توجهنا إليه حكمة الله بآياته لإدراك الإعمال والتعطيل؟ هل تأملنا لتعطيل هذه الشعيرة من شعائر ديننا، وإن إقامة شعائر الله من تقوى القلوب يوم تدرك العقول للشعيرة معنى وحكمة؟ ولكنا ما تأملنا!! وما تأملنا!! وما تفكرنا!! وما اتعظنا وما تواصينا!! ألا نربط بين هذا وبين نبوءة الرسول ودلالتها يوم قال (حجوا قبل أن لا تحجوا)[١٧] أو قوله (بدأ الإسلام غريبا ويعود غريبا كما بدأ)[١٨]؟

إن القلوب بعيدة عن تقوى الله، بعيدةً عن شعائره، بعيدةً عن الإحساس بألم الفقدان لشعيرة أقامها الله، وأقبل عليها الناس بمحبة وصفاء ردحا من الزمان. وإن في تعطيلها وهي تؤدى على غير وجهها السليم إشارة إلى ما ينتظرها من تجديد، مع تجديد الإسلام وعقائده وأموره.

لقد أصبحنا في حال يجعل إتيان الشعيرة متعادلا مع إغفالها، فقد أصبح كلاهما سواء عند هؤلاء المسلمين من الأدعياء. ولعل في تعطيل الشعيرة بيان لما كان من إشارة في زلزلة بيت القبلة وتصدع سقفه وجدرانه وما فيه من واضح عبارة، وما في الأمرين من إرهاص لنبوءة هذه الأحداث لها سفارة، ولكن أين المتعظ!! أين المتأمل!! أين المتفكر في آيات الله في نفسه وفي الآفاق، وآيات الله تترى كل يوم وفي جميع الأرجاء، وفي كل الأحداث والأشياء!! وها هي في الشعائر تتواجد ليستيقظ أهل الشعائر من الناس، لما ترهص به أحداث الأرض، وترهص به أحداث السماء، عما ينتظرهم من موعود أمرهم ومنتظر نفوسهم، على ما وعدوا من سابق أمر قام بينهم، إعمالا للسنة الدائمة مع كل رسول إنذارا وبشرى لأمر يتجدد فيهم، به يتكشف لهم كسبهم وخسرانهم مع قائم أمرهم. إن يوم الفصل كان ميقاتا، للطاغين مآبا، لابثين فيه أحقابا. القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار. إن الله يبعث من في القبور. والله أنبتكم من الأرض نباتا. حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أتاهم نصرنا. واصبر ما صبرك إلا بالله، ولا تحزن عليهم، ولا تك في ضيق مما يمكرون، إن الله مع الذين اتقوا، والذين هم محسنون. وها هي الأحداث ترهص ليوم الفصل في أمر محمد وأمته من الجنس وأهل كتابه من الناس.

لقد جاء الإسلام بقانون ثابت، {ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون}[١٩]، وقد جعل من جهاد النفس جهادا أكبر. فمن قتل نفسه في مجاهدتها على طاعة الله

وخدمة عباده، بعثت بالنور الذي أُنزل مع رسوله، ولم يرفع معه، لبقائه حيا في قبره، ينتظر انشقاق الأرض عنه، بمولد عليها مرة أخرى، ليحدث الناس بما كانوا به لا يوقنون، مبعوثا بالمقام المحمود الذي وعد، وقد زويت له الأرض، وجعلت له مسجدا وطهورا، فهو يوم كل يوم من دعاتها بنوره تكاثرا، يمتد في أهل السجود في كل بلد، ولكل قوم هاد بلغة القوم ليبين لهم. وهو ليل سكينتها ليلا ساريا في جلود قيامها بأهلها من نباتها، نياما يستوفون معاني الحياة لأوانيهم ومعانيهم، حتى تلد الأرض، أَمةً لله، سيدها بوصف عبده ورسوله، قيامة لقائم الحق بها، من الحي القيوم عليها، روح الحياة العظيم في الأعظم في اللانهائي، به يقوم علما عليه حتى يتبين للناس، بعباد الرحمن بينهم أنه في الأرض إله، كما هو في السماء إله. وذلك بمداناة السماء بعباد الرحمن فيها، أرواحا مرشدة، لقائم الإرشاد لأهلها، يطلبونه كما يطلبه الملأ الأدنى الذي تعرفونه وراء أئمته ورواده، وليتبين لهذا الملأ ولذاك الملأ بجمعه للملأين فيهما، أن لا مكان ولا زمان لمنشود الإنسان في الرحمن، وأن الإنسان في العالمين، من عالم الذات أو عالم الروح هو اسم الله، وذكر الله، ووجه الله، والحق من الله، وروح الحياة، ونور الإله، وأن ما وعد به أهل الأرض من أمرهم في السماء، وما وعد به أهل السماء من أمرهم في الأرض إنما هي شئون دائمة القيام وقوانين للحياة دائمة الفعل، وآثارها دائمة التواجد، وأن الموت والمولد أمران متعاقبان في حياة الإنسان تعاقب الليل والنهار عليه، وأن الجنة والنار، والدنيا والآخرة كذلك أمور متعاقبة على الإنسان تعاقب الفصول، وأن الإنسان تحت الزمن وتحت الطبيعة غير الإنسان فوق الزمن وفوق الطبيعة، وأن إنسان ما فوق الطبيعة أوجد إنسان ما تحت الطبيعة ليتعارف إليه في إنسان الطبيعة، وأن شعيرة الهدي والنحر والفداء وملحقاتها من حركات منسك الحج، والأماكن المؤداة فيها وطبيعتها وشكلها إنما هي عبارات خرساء من الطبيعة الصامتة عن النطق، لتعبر عن صدق حكمة الحكماء من وعي إنسان ما فوق الطبيعة عن قوانين الحياة الثابتة، والتوجيه للإفادة منها.

اللهم يا من اصطفيت محمدا، واصطفيت به، واصطفيت منه، وجعلته صفاءً وريا، وأزهقت معاني الباطل منه وممن حوله، وأقمت معنى الحق به وبمن حوله، اللهم به فألحقنا، اللهم به فأوصلنا، اللهم به فاغفر لنا، اللهم به فارحمنا، اللهم به فتولَنا، اللهم به فأمتنا، اللهم بنا فابعثه، اللهم لنا فاجعله حقا منك وقياما لك، عبادا لك نقيم شعائرك على حق، فنشهد لا إله إلا الله، ونشهد محمدا رسول الله في قائم قيامنا ونعلنها حيث نوجد أو نتواجد في السموات وفي الأرض، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. لا إله إلا الله.

أضواء على الطريق

(ألا ترون معي أن الإنسان قد فقد طريقه منذ سنوات كثيرة جدا؟ ومع الأسف فإن هؤلاء الذين كان عليهم أن يرشدوه ويقودوه، هؤلاء الذين كان عليهم أن يكونوا معلميه الروحيين، أصبحوا هم أنفسهم عميانا كقطيعهم. لقد تمرغوا في كل أنواع العقائد المذهبية. لقد أشاعوا طريقة لاهوتية من ظلام نفوسهم، وبنوا طبقات متتالية من التقاليد والعقائد الخرافية. واخترعوا الطقوس والخيالات وحصنوا الكنائس والمعابد والهياكل والمساجد لحساب خرافاتهم مجتهدين في أن يعملوا حاجزا بين الأطفال والروح الأعظم.

كتبوا سجلاتهم المقدسة وادعى كل جماعة أن كتابهم هم هو الأعلى وأنه هو الذي يحوي التنزيل الوحيد من الحق السماوي. وتجادلوا وتنازعوا مع الأسف في حقد ومرارة ونسوا روح الحب التي يجب أن تسكن في كل المتدينين.

لقد طردوا النبي والولي والحكيم والصوفي. لقد صلبوا المعلمين وأعدموا من سموهم بالخوارج. لقد رفضوا السماح للروح الأعظم بأن يسمع خلال آلاته. لم يكن هناك في نظمهم العقيمة مكان ليظهر فيه الصوت الحي للروح الأعظم. وأبوا أن تقوم بينهم عين بصيرة. علموا أن كل قوة قد تركزت فيهم وأنه لا يوجد أحد يستطيع الاقتراب من الروح الأعظم إلا رجل الدين. ومع وجود قديسين كثيرين بينهم فلقد كانوا دائما متأخرين عن وضعهم وخدمتهم لقوة الروح التي يمكنها وحدها خلق الدين الحقيقي ومساعدة الإنسان للوقوف على قدميه).

من هدي السيد (سلفربرش

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة البقرة - ٥٤

٢ حديث شريف. المحدث: الزرقاني، ولكن لم يثبت سنده، ويوافق الحديث الشريف: "كُنْ في الدُّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسَك في الموتَى". أخرجه البخاري.

٣ قول للإمام عليّ كرم الله وجهه. المحدث: السيوطي. المصدر: الدرر المنتثرة.

٤ سورة العنكبوت - ٦٤

٥ سورة الشمس - ١٣

٦ سورة الزمر - ٤٢

٧ سورة الكوثر - ٢

٨ سورة الشعراء - ٢١٨-٢١٩"

٩ سورة الأنعام-١٢٢

١٠ سورة البلد - ١١-١٣

١١ سورة الطارق - ١١:١٢

١٢ من حديث شريف ذكره السيوطي بلفظ: "الدنيا جيفة، والناس كلابها". وأخرج الديلمي عن عليّ مرفوعاً: أوحى الله إلى داود: يا داود، مثل الدنيا كمثل جيفة جمعت عليها الكلاب يجرونها، أفتحب أن تكون مثلهم فتجرها معهم"؟ أيضا: "قال علي بن أبي طالب الدنيا جيفة، فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب." المصدر: الموضوعات للصغاني. وعند أبي نعيم عن يوسف ابن أسباط.

١٣ حديث شريف: "أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون." الراوي: أبو سعيد الخدري، أخرجه أحمد، وابن حبان، والحاكم في ((المستدرك)).

١٤ جاء هذا الحديث الشريف بأكثر من صيغة: " إنَّ هذه القلوبَ تصدأَ كما يصدأَ الحديدُ، قيل: يا رسولَ اللهِ فما جلاؤُها؟ قال: قراءةُ القرآنِ." أخرجه ابن عدي، وأبو نعيم، والبيهقي باختلاف يسير. و "إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء، قيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الموت، وتلاوة القرآن. كما أخرجه البيهقي، والطبراني، والديلمي، بلفظ: "إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلاؤها الاستغفار."

١٥ استلهاما من تعاليم السيد المسيح وهو يدعو حوارييه أن يزرعوا "الكلمة" أي كلمة الله، أي المسيح في أرض ذواتهم.

١٦ سورة الذاريات - ٢١

١٧ حديث شربف: "حجوا قبلَ أن لا تحجّوا قالوا وما شأنُ الحجّ يا رسولَ اللهِ؟ قال يفعلهُ أعرابُها على أذنابِ أوديتِها فلا يصلُ إلى الحجِّ أحدٌ". رواه البيهقي والدارقطني.

١٨ حديث شريف: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ غريبا." صحيح مسلم.

١٩ سورة آل عمران - ١٦٩